



في زمن تجاوز فيه الظلم والجور كل الحدود، وتعاظمت فيه ألوان وأنواع البغي وقهر الإنسان لأخيه الناس بدوافع عنصرية وأيديولوجية وطائفية... يغدو الحديث عن العدل - كمبدأ وقيمة إنسانية إسلامية أساسية، بل ومقصد شرعي أصيل، أمرا في غاية الأهمية والضرورة.

و مع تعرض هذا المقصد الإسلامي الأصيل لبعض الغمز واللمز من قبل أعداء الإسلام، بالإضافة لما يكتنفه من عدم تطبيق على أرض الواقع في كثير من بلاد الإسلام، ناهيك عن سوء فهمه على حقيقته عند بعض من ينتسبون إلى هذا الدين العظيم.... يتحول تناول هذا الموضوع إلى ما يتجاوز الاستحباب أو الفضول.

ونظرا لسعة جزئيات وتفاصيل موضوع العدل في الإسلام، سأكتفي بذكر الأدلة على أصلية هذا المقصد من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وعمل السلف الصالح، وبخصائص ومزايا هذا المقصد في الشريعة الإسلامية، والتي تجعله متميزا عن كل ما شهدته البشرية أو عرفته من عدل.

أدلة مقصد العدل في الشريعة الإسلامية:

كثيرة هي النصوص الشرعية الدالة على اعتبار العدل قيمة عليا في الإسلام، ومبداً أساسيا من مبادئه، ومقدساً أصيلاً من مقاصده، ويأتي على رأس تلك النصوص آيات القرآن الكريم، وأحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم، وعمل السلف الصالح من أمتة.

أما الآيات القرآنية فيكفي الإشارة إلى بعضها من مثل قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى} النحل/90، وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤْدُوا الْأَمْانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ يُعْلَمْ بِعِظَمِكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} النساء/58 وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَيْءٌ قَوْمٌ عَلَى أَلَا تَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلنَّقْوَى} المائدة/8 وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ...} النساء/135، وقوله تعالى: {فَلِذِكْرِ فَادْعُ وَاسْتَقْرُ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ...} الشورى/15

وإذا انتقلنا إلى السنة النبوية بشقيها القولي والفعلاني فإن المجال لا يتسع لذكر جميع النصوص والشواهد التي تؤكد على مبدأ العدل، ففي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: {إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ وَكُلُّ تَيْدِيهِ يَمِينُ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا} (1) والمقطيون هم العادلون.

ومن يدقق في حياته صلى الله عليه وسلم يتأكد له أن سيرته العطرة كانت ترسخاً لقيمة العدل في نفوس أصحابه، وتأكيداً على أن العدل من أهم مقاصد الشرع الحنيف، فقد كان العدل ملزماً جميع مجالات حياته صلى الله عليه وسلم. ففي بيته كان عادلاً بين زوجاته وأمهات المؤمنين، فيقسم بينهن بالعدل، وفي ذلك تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفَرًا أَفْرَغَ بَيْنَ نِسَائِهِ فَأَيْتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَعَهُ...)(2).

ومبدأ العدل كان راسخاً في قضاياه صلى الله عليه وسلم في خصومات المتخاصلين، ففي الحديث عن حرام بن محيصنة عن أبيه أن ناقة للبراء بن عازب (دَخَلَتْ حَائِطَ رَجُلٍ فَأَفْسَدَتْهُ عَلَيْهِمْ فَقَضَى رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَى أَهْلِ الْأُمُوَالِ حِفْظَهَا بِالنَّهَارِ، وَعَلَى أَهْلِ الْمَوَالِيِّ حِفْظَهَا بِاللَّيلِ)(3).

وفي تعامله وبيعه وشرائه وتجارته كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أعدل الناس، بل كان إحسانه يرجح دائماً، ففي الحديث عن عن سويد بن قيس قال جلبت أنا ومخرفة العبدى بزا - ثياب - من هجر، فجاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فساومنا سراويل وعندهنا وزان يزن بالأجر فقال له النبي صلى الله عليه وسلم (يا وزان زن وأرجح)(4).

كما كان عدله صلى الله عليه وسلم صارخاً في إنصاف الناس حتى من نفسه، ففي الحديث عن أبي سعيد الخدري قال: **بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْسِمُ شَيْئًا أَقْبَلَ رَجُلٌ فَأَكَبَ عَلَيْهِ فَطَعَنَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعُرْجُونٍ كَانَ مَعَهُ فَخَرَجَ الرَّجُلُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (تَعَالَ فَاسْتَقِدْ) قَالَ: بَلْ قَدْ عَفَوتُ يَا رَسُولُ اللَّهِ.**(5).

بل كان من روائع عدله صلى الله عليه وسلم أنه كان يكره أن يتميز عن أصحابه، ويحب أن يقاسمهم الجهد والعمل في سبيل الله، ففي الحديث عن عبد الله بن مسعود قال كُنَا يَوْمَ بَدْرٍ كُلُّ ثَلَاثَةٍ عَلَى بَعِيرٍ كَانَ أَبُو لَبَّاَةَ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ زَمِيلِيُّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: وَكَانَتْ عُقْبَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فَقَالَ: تَحْنُ نَمْشِي عَنْكَ فَقَالَ: (مَا أَنْتُمَا يَأْقُوا مِنِي وَلَا أَنَا يَأْغُنِي عَنِ الْأَجْرِ مِنْكُمَا)

(6).

ويأتي باب حدود الله ليتوح عظمة عدله صلى الله عليه وسلم، من خلال تنفيذ وتطبيق العدل في هذا الباب بحزم ومساواة، سواء كان الفاعل غنياً أو فقيراً، قوياً أو ضعيفاً، ففي الحديث عن عائشة أن قريشاً أهمل شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا: مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالُوا وَمَنْ يَجْتَرِي عَلَيْهِ إِلَّا أَسَامَةُ حَبْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَلَمَهُ أَسَامَةً. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَتَشْفَعُ فِي حَدِّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ). ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ فَقَالَ: (إِيَّاهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَهْلُكَ الَّذِينَ قَبَلُوكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقُوا فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدُّ وَإِنَّمَا اللَّهُ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا)

(7).

والحقيقة أنه لا مزيد على مبدأ العدل من هذا الموقف النبوى الفريد، الذي يعبر عن قمة هرم المساواة بين الناس أمام حدود الله تعالى في الإسلام، الذى كان حقيقة واقعاً في عهده صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده، وليس مجرد أحلام وأمان وشعارات ومدينة فاضلة في الخيال كما هو حال قوانين ودساتير دول هذه الأيام.

لقد بقى العدل في رئيس أولويات الخلفاء الراشدين كما كان في عهد النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، ولا يمكن لمثل هذا المقال أن يجمع بعضاً من قصص عدل الخلفاء الراشدين وعلى رأسهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ويكتفى في هذا المقام ذكر قول عبد الله بن عمر عن عدل أبيه رضي الله عنهما:

"كان عمر إذا نهى الناس عن شيء جمع أهله وقال: إني قد نهيت الناس عن هذا وكذا وإنهم إنما ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم فإن وقتم وقعوا، وإن هبتم هابوا، وإن الله لا أؤتي برجل منكم فعل الذي نهيت عنه إلا أضعفنت عليه العقوبة، ل مكانه مني فمن شاء فليتقدم ومن شاء فليتأخر"

(8).

إن قصص أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مع العدل والمساواة أكثر من أن تحصى، ولم يعرف التاريخ ديناً أقام العدل والمساواة بين الناس بأبهى صوره كما فعل الإسلام، ولعل في اقتصاص أمير المؤمنين من كل من ابن عمرو بن العاص واليه على مصر، وجبلة بن الأبيهم الأمير الغساني.... لتعديهما على فزارى و مصري أعظم مثال على مستوى تطبيق العدل والمساواة في المجتمع الإسلامي حينها.

خصائص ومزايا العدل في الإسلام:

يمتاز العدل في الإسلام بمزايا وخصائص لا توجد في غيره، ولعل من أبرز وأعظم خصائص ومزايا العدل في الإسلام:

الإطلاق والشمول: فالعدل في الإسلام مبدأً مطلق وشامل، لا يستثنى منه أحد سواء كان مسلماً أو غير مسلم، والآيات القرآنية تؤكد هذا الإطلاق وعدم الاختصاص، قال تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ إِنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ} النساء/58. والناس كلمة عامة مطلقة تشمل المسلم وغير المسلم.

وانطلاقاً من هذا المفهوم للعدل لم يجعله الإسلام منوطاً بإسلام المسلم حتى يكون مقصوراً عليه لا يتعداه، بل مناطه إنسانية الإنسان المترعرع عن مبدأ الكرامة الإنسانية الثابت بقوله تعالى: {وَلَقَدْ كَرَمْنَا بَنِي آدَمَ} الإسراء/70.

كما لم يجعل الإسلام العدل منوطاً -في السياسة الخارجية- بالغالب دون المغلوب، ولا بالقوى دون المستضعف، ولا بالغنى دون الفقير، كما هو الوضع السائد في منطق القوانين الوضعية، بل رسم الإسلام من مفهوم العدل المطلق حتى مع الأعداء، فقال تعالى: {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} المائدة/8.

إن العدل في نظر الإسلام هو الغاية القصوى التي أنزلت من أجلها الشرائع السماوية، وأرسل الرسل جميعاً لتحقيقها بين بني البشر، مصداقاً لقوله تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًاٍ بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُولَمَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...} الحديد/25. بل إن الإسلام لم يقف عند حد إقامة العدل بين الناس والأمر به، بل جاوز العدل إلى الإحسان والفضل، فقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ...} النحل/90.

كما أن خاصية شمول الإسلام تمنع التمييز في تنفيذه وتطبيقه بناءً على اعتبارات الشرف والمكانة أو الغنى والجاه، فجميع الناس في نظر الإسلام سواسية أمام أحكام الله وشرعيه، سواء في أبواب المعاملات حيث يطبق شرع الله على كل من يعتدي على حقوق الآخرين المالية، أو في باب العقوبات والحدود والجنایات، فالجميع سواسية أمام حدود الله، ولعل في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: {وَإِنَّمَا اللَّهُ لَوْلَا أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعَتْ يَدَهَا} غنية في التأكيد على شمول عدالة الإسلام الجميع دون استثناء.

لقد بلغ سمو قيمة العدل في الإسلام أن وصل إلى درجة تقديمها على كل الاعتبارات والقيم الأخرى، وقد وضع الرسول الكريم والسلف الصالح العدل حيث أراد الله، مقدماً على النفس والوالدين والأقربين، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُوْنُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ اللَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِيْنَ...} النساء/135.

ولم يكن هذا التقديم في الإسلام مجرد شعار أو كلام فحسب، كما هو الحال في قوانين ودساتير دول العالم الذي يزعم التحضر اليوم، بل كان العمل والتطبيق والتنفيذ برهانه ودليله، بدءاً بالرسول القدوة الذي مكن الرجل ليقتصر لنفسه منه صلى الله عليه وسلم، وليس انتهاءً بأمير المؤمنين عمر الذي نفذ حد الله على ولده عبد الرحمن كما أمر الله.

إن ما نراه اليوم من تفشي الظلم وانتشاره في مشارق الأرض ومحاربها، وغياب شبه كامل لقيمة العدل -اللهem إلا في بعض المجالات وفي بعض البلدان وعلى بعض الناس دون بعض- إنما مرده إلى ابعاد الناس عن دين الله الحق الإسلام، الذي يعتبر المصدر الأصيل للعدل، والنموذج الأفضل لتطبيقه وتنفيذه.

- (1) صحيح مسلم برقم/4825.
- (2) صحيح مسلم برقم/7196.
- (3) سنن الترمذى برقم/3571 وصححه الألبانى.
- (4) صحيح سنن ابن ماجه للألبانى برقم/2211.
- (5) سنن النسائي برقم/4787.
- (6) مسنن الإمام أحمد برقم/3901.
- (7) صحيح مسلم برقم/4505.
- (8) مصنف عبد الرزاق برقم/20713.
- (9) خصائص التشريع الإسلامي للدكتور فتحي الدريني ص54 – 59 بتصريف.

المسلم

المصادر: